مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

قـــــضــــــايـــــــا

هالة "المقاومة" التي نسجها "حزب الله" حول سلاحه

وسام سعادة*

24 مارس/آذار 2014

Al Jazeera Centre for Studies
Tel: +974-44663454
jcforstudies@aljazeera.net
http://studies.aljazeera.net

وسام سعادة

ابتدع "الاتحاد الأوروبي" تمييزًا يبدو "ميتافيزيقيًا" بعض الشيء بين ما أسماه جناحين عسكري وسياسي من "حزب الله"، مكتفيًا بتصنيف الجناح العسكري "إرهابيًا" دون الجناح السياسي، وغير مكترث باستهزاء "حزب الله" نفسه بهذا التصنيف، وإجماع سائر اللبنانيين معه على أنه تصنيف لا يمكن أن يؤخذ به؛ حيث إن العلاقة بين ما هو عسكري-أمني وبين ما هو سياسي واجتماعي ليست تستعيد في حالة "حزب الله" ثنائية التفريق بين "الجيش الجمهوري الأيرلندي" وبين جناحه السياسي "الشين فين".

في المقابل، يرزح الاجتماع اللبناني منذ أكثر من عقدين تحت "تثنية" لا تقل ميتافيزيقية، بين "حزب الله" من حيث هو "حزب الله"، وبين "حزب الله" من حيث هو "المقاومة الإسلامية"، وصولاً إلى تعاظم توصيف الذات لدى "حزب الله" بشكل تصاعد على مدى العقدين الماضيين على أنه "المقاومة" على سبيل الإطلاق والإبهام. فما هو وجه العلاقة بين هذه المسميات الثلاثة: "حزب الله"، "المقاومة الإسلامية"، "المقاومة" (بالمطلق)؟ هل هي مرادفات ليس إلاّ؟ وهل العلاقة بين المضامين التي تشير إليها هذه المسميات هي علاقة جزء إلى كلّ، وفرع إلى أصل، وظاهر إلى باطن، ومتغير إلى ثابت؟

الثلاثية العجيبة: "حزب الله"، "المقاومة الإسلامية"، "المقاومة"

الطريف في هذا المجال أنّ هذه المسميات الثلاثة يمكنها أن تتضمّن بعضها بعضًا، تبعًا لزاوية النظر التي نعتمدها، وهي إذ ذاك تكشف وظيفتها الأساسية: نسج الهالة الأيديولوجية-الأسطورية حول جماعة "حزب الله" المسلّحة العاملة في لبنان منذ بداية الثمانينات؛ وذلك من طريق إسباغ صفتي الفرادة والكونية في وقت واحد على هذه الجماعة.

أما عن "الفرادة"، فهي تبدأ من خلال ابتداع جملة مقولات لا أصل لها في تاريخ العقود الماضية، ومنها: أن "حزب الله" كان في منأى عن الانخراط في الحرب الأهلية اللبنانية، في حين أن هذا الحزب هو ليس فقط "ابن الثورة الإسلامية الإيرانية"، وابن المسألة الجنوبية اللبنانية، بل هو قبل كل شيء ابن الحرب الأهلية اللبنانية، وخاضها بشكل أساسي كحرب "أهلية شيعية داخلية"، للسيطرة تباعًا، على الضاحية الجنوبية لبيروت والجنوب والبقاع الشمالي، وبعد صراع دموي مع "حركة أمل"، دون إغفال وقائع "تنكيله باليساريين، أو تهجيره لمسيحيين"، كما في مشغرة. صحيح أنه لم يشارك في "حرب المخيمات" إلى جانب حركة أمل، لكن هذا لا يلغي أبدًا أنه تشكيل مسلح أساسي وفاعل في القسم الثاني من الحرب الأهلية اللبنانية (الثمانينات).

أما عن "الكونية" فهي تتصل بأسلوب تبني "حزب الله" لمفهوم أوروبي النشأة كمفهوم "المقاومة"، وخصوصًا إكثار قادته من مقارنة تجربتهم مع "المقاومة الفرنسية" بالتحديد، سواء للمفاضلة الأخلاقية معها (فيما يتعلّق مع أسلوب التعامل مع المتعاونين مع سلطات الاحتلال) أو فيما يتعلّق باستقاء مصدر شرعية فكرة المقاومة نفسها وديمومتها، من مثل الاعتماد على النموذج الفرنسي للقول بأن المقاومة لا تنتظر إجماعًا وطنيًا حولها، وبأنها لا تنتهي بزوال الاحتلال وإنما بزوال "النازية" نفسها في حالة المقاومة الفرنسية، ما يُفترض أن يعطي حجة موازية لـ"حزب الله" تسويغًا للإبقاء على سلاحه بعد التحرير، وهي المقارنة التي لجأ إليها أمين عام "حزب الله" السيد حسن نصر الله قبل بضعة أشهر.

بالتوازي، يُلحظ هامشية حضور مفهوم "حركة التحرر الوطني" في خطاب "حزب الله"، وقلّة إحالة زعمائه على المقارنات مع المقاومتين الجزائرية والفيتنامية مثلاً؛ حيث تبقى الإحالة المركزية هي لـ"المقاومة الفرنسية". يبحث الحزب من خلال هذه الإحالة عن إسباغ صفة "الكونية" على "سلاحه"، كما يحرص على إظهار عدم تعارض هذه الكونية مع خصوصياته كحزب شيعي يستحضر "تراث المظلومية"، وكحزب "مهدوي"، معني بتعجيل الخلاص. هكذا ينسج الحزب الهالة حول نفسه، من خلال إبقائه على ثلاثة أسماء له في وقت واحد: "حزب الله"، "المقاومة الإسلامية"، "المقاومة"، ويحتفظ بحق التنقل بينها كما يحلو له.

المقاومة كـ"ثالثة ثلاثة": إرث الوصاية السورية

تغفل الخلطة بين "الفرادة" و"الكونية" جملة أمور ليس أقلّها أن الحرب اللبنانية خيضت بين "مقاومات": (المقاومة الفلسطينية، الحركة الوطنية المساندة للمقاومة الفلسطينية، أفواج المقاومة اللبنانية-أمل)، "المقاومة اللبنانية" (المقصود: "المسيحية")، "المقاومة الوطنية" (اليساريون والقوميون). في الوقت نفسه، فإن ما جرى هو أن التشكيلات المسلحة الأخرى لم تستطع الذهاب إلى الآخِر في نسج سردية كاملة حول "المقاومة"، في حين استطاع "حزب الله" ذلك، أولاً: من خلال امتصاص مفهوم "المقاومة الإسلامية" عنده لمفهوم "الثورة الإسلامية في لبنان" الذي رفعه في الثمانينات كشعار حركي تعبويّ على الساحة اللبنانية، وثانيًا: من خلال استفادته مما يمكن تسميته بـ"عطايا التكاذب اللبناني"، لاسيما في ظل الوصاية السورية، يوم شكّلت هذه الوصاية من جهة، والإحباط السريع لعملية السلام على الملف السوري من جهة ثانية، مدخلاً لتجاوز اتفاق الطائف (1989) من خلال إعفاء حزب الله من مترتبات حل الميليشيات.

هذه الميليشيات طرحت نفسها جميعها كمقاومات في سني الحرب، لكن أيًا منها لم يكن بمستطاعه الذهاب بعيدًا على طريق نفي صفة "الميليشياوية" عنه، وبما لأنه في الميليشيات-المقاومات الأخرى، كان نموذج "الجيش الشعبي" بإزاء "الجيش النظامي" هو الطاغي على مخيلتها. هذا يُستدل عليه خصوصًا عند مراجعة الأنماط الخطابية السائدة في المناطق المسيحية في نهاية الثمانينات بين "الجيش النظامي" أي: "الجيش اللبناني" و"الجيش الشعبي" أي: "القوات اللبنانية" التي كانت تعرّف نفسها أيضًا بوصفها "المقاومة اللبنانية". أما أحزاب الحركة الوطنية، فكانت تنوّع على مفهوم "جيش التحرير الشعبي" المستقدم من تركة حركات التحرر الوطني هنا وهناك.

في المقابل، سوف يتجاوز "حزب الله" هذه الثنائية (جيش شعبي-جيش نظامي) من خلال تشرّبه لنموذج "الحرس الثوري الإيراني" الذي يُبقي الجهاز الأمني والعسكري للحزب مرتبطاً عضويًا، وتبعيًا به، وليس فقط مرتبطًا أيديولوجيًا ودينيًا بولاية الفقيه.

في ظل استمرار الاحتلال الاسرائيلي للشريط الحدودي، وتحكم الوصاية السورية بالداخل اللبناني، و"هزيمة المسيحيين" في الحرب الأهلية في مقابل اتضاح معالم الاستقطاب المذهبي السياسي بين الشيعة والسنة باكرًا بعدها، سوف يشهد عقد التسعينات عملية إنشاء لأسطورة جديدة، وهي أنّ "المقاومة ليست ميليشيا".

هذه المقولة كانت جزءًا من جملة مقولات شكّلت شبكة "الأمان الخطابي" لمنظومة الوصاية، ومنها مقولة "تلازم المسارين" التفاوضيين: السوري واللبناني، وهي مقولة فُرضت بدءًا من العام ١٩٩٣، ورُقيت إلى منزلة "وحدة المسار والمصير" بعد وصول قائد الجيش العماد إميل لحود إلى الرئاسة في خريف ١٩٩٨.

في مرحلة الوصاية السورية إذًا، بقي "حزب الله" بمثابة ثالث ثلاثة من ناحية التشكيلات العسكرية، أي من بعد الجيشين: السوري العامل في لبنان، واللبناني المعاد تشكيل ألويته وفقًا للتوازنات الإقليمية والداخلية التي انتهت بنتيجتها الحرب اللبنانية. ويقابله على الطرف الآخر من الجبهة، كل من جيش الاحتلال الاسرائيلي والميليشيا الحدودية المتعاونة معه.

المقاومة المستغنية عن الإجماع الوطني و"المكافِحة للإرهاب"

هذه الخارطة ستتبدل مع انسحاب جيش الاحتلال الاسرائيلي (عام 2000)، وخصوصًا مع انهيار الميليشيا الحدودية المتعاونة معه، ثم بعد ذلك بخمس سنوات مع انسحاب جيش الوصاية السورية (2005)؛ فمن جهة، وفي السنوات الفاصلة بين الانسحابين: الإسرائيلي والسوري، سوف تتحول منطقة الشريط الحدودي المحرّر إلى أول منطقة في لبنان تخضع لسيطرة "حزب الله" ولا تنازعه عليها سيادة أخرى (الأمر سيتبدّل ويتعقّد بعد حرب يوليو/تموز 2006 والقرار ١٧٠١)، في حين كان جزءًا من معادلة ثلاثية (جيشين: سوري ولبناني وهو) في المناطق الأخرى.

أما من جهة ثانية، فسوف يندفع أكثر فأكثر بعد التحرير، ومن ثم بعد الانسحاب السوري، إلى التحصّن وراء مقولة "حجاجية" مفادها أن "المقاومة هي في غنى عن الإجماع الوطني" على ما سيردّده زعيم الحزب وخطباؤه في غير مناسبة. لكن هذه المقولة استُتبعت باثنتين: عدم الموافقة على طرح موضوع سلاح "حزب الله" لحوار مباشر حوله، وإنما لحوار غير مباشر، من خلال ما جرت تسميته، "استراتيجية دفاعية". ومن جهة ثانية، إصرار الحزب على إيراد "مقاومته" في البيانات الوزارية لحكومات ائتلافية صار يشارك فيها، بخلاف "عدم مشاركته فيها" في عهد الوصاية السورية، وهذه الصيغة البيانية تدرجت من ثلاثية: "الشعب والجيش والمقاومة" إلى "حق اللبنانيين في المقاومة"، ويعتبر "حزب الله" أنها تعطيه وكالة غير قابلة للحصر، ولا للعزل، ذهابًا وإيابًا، سواء على صعيد تثبيت أو تحريك جبهة الجنوب، أو على صعيد الضغط "الأهلي" على القوات الدولية العاملة في جنوب لبنان، والموسعة بعد حرب يوليو/تموز 2006، أو من خلال تبرير التدخل المسلح في الداخل اللبناني تحت شعار "السلاح لحماية السلاح"، ووصولاً إلى التدخل في سوريا، وهذه المرة من بوابة التبني الكاريكاتوري للمقولات الغربية الأكثر يمينية ومحافظة حول "مكافحة الإرهاب" وتجفيف منابعه، وضرب بناه التحتية وبيئاته الحاضنة. وهذه واحدة من أكبر مفارقات العصر: تنظيم مدرج على لوائح "الإرهاب" الأميركية والأوروبية يحارب تنظيمات مدرجة بدورها على اللوائح نفسها، بل يحارب بيئات أهلية كاملة تنتمي للنسيج الأكثري "السني-العربي" في سوريا، وفي المناطق اللبنانية القريبة، وبحجة "مكافحة الإرهاب".

طبعًا ثمة شيء من الصحة عندما يقول "حزب الله" إن المقاومة لم تكن موضع إجماع وطني قبل التحرير الوطني للتراب اللبناني كي تكون موضع إجماع بعده، لكنّه، في يوم تحرير الجنوب، كانت "مقاومة حزب الله" مرتبطة بمنظومة "الجيشين السوري واللبناني"، في حين أنها صارت عمليًا تطرح نفسها كوصاية فئوية داخلية على الفئات الأخرى، وكوصاية إقليمية سورية-إيرانية مشتركة في وجه أشكال النفوذ العربي والأجنبي الأخرى في لبنان، وهذا ما زاد من حدة الاستقطاب. ومع عدم التوازن الأمني والعسكري بين المتصارعين على الأرض اللبنانية، تجذّر الاستقطاب بشكل عدائي أكثر، كونه يستند في اقتصاد العنف -الذي يقوم عليه- على معادلة "لا متكافئة" أبدًا، منها الحرب السرية ضد خصوم النظام السوري و"حزب الله" في لبنان، ومنها الزيادة النوعية لرقعة وحجم تسلّح "الحزب" وطريقة سيطرته الأمنية على المناطق الشيعية اللبنانية ثم على كثير من المناطق المختلطة، بدءًا من الشطر الغربي من العاصمة اللبنانية. كل هذا سيجعل "المقاومة

الإسلامية" تبدو في نهاية المطاف بمثابة الذراع العسكري لمشروع "هيمنة طائفة" على الطوائف الأخرى، في مسعى لحسم الصراع على الزعامة والصدارة بين الطوائف اللبنانية منذ ظهور هذا الكيان الوطني.

ومع انخراط ميليشيات الحزب في القتال إلى جانب قوات الرئيس بشار الأسد في سوريا، سوف تضاف على صفة هذا السلاح الفئوي والهيمنة الداخلية، صفة انخراطه في فصل دموي من التصادم السني-الشيعي، وهنا أيضًا يعتقد الحزب أنه بتبنيه للمقولات الكونية مثل: "المقاومة"، وباصطناعه للفرادة حول نفسه، مثل اعتبار سلاحه متفوقًا أخلاقيًا وليس فقط دينيًا على خصومه، يمكنه أن يطمس ما هو أهليّ، وإثني، ومنتج للأحقاد بين الأقوام والملل. في الواقع، هذا الفائض من الوسائل الخطابية الحداثية المستجلبة للتستر على ما هو مذهبي فاقع، إنما يؤدي وظيفته معكوسة: محاكاة سلاح الحزب في سوريا لخطاب وممارسات الإدارات الأوروبية في مستعمراتها إبان الحقبة الكولونيالية، معطوفة على محاكاة خطاب عتاة "الحرب العالمية (الأميركية) على الإرهاب".

لطالما كانت المقاومات تنكر على نفسها صفة أنها "إرهابية"، أما أن تكون ثمة مقاومة تؤصل "مكافحة الإرهاب" كركن أساسي في خطابها وإعلامها وحربها، فهذه مفارقة كبيرة.

** وسام سعادة - أستاذ في جامعة القديس يوسف في لبنان*

انتهى